حبهـــا ...

للأستاذ السيد محمد زيادة

عرفتها شاعرة فى عينيها الشعر ؛ وكأنما خلقها الله بهاتين العينين ليودع فيهما من أسرار الغيب ، ويصور بهما من معانى الخلود معنى الفن . . . فجاءتا هكذا ساحرتين لا يُفهم من أى نوع سحرُهما ، ولا يُدرك إلى أى حد تأثيرهما ؛ وغاية ما يفهم أو يدرك منهما أنهما حين تلمحان تجرحان ، وحيث تنظران تأسران . . .

ويبدو فيها كأنه جمرة صغيرة . . .

ويُرى خداها كأن على كل منهما وردة فى لهب . . .

وعرفتها فى كل هذا وبكل هذا . . . عرفتها فى قصة حب أولها معروف وآخرها مجهول

كانت تغنى ، ووقع بصرى عليها لأول مرة فلا أدرى ما الذى نزل منها على نفسى فجال فيها ثم استقرّ فيها فما ذهب عنها وما هو ذاهب أبداً !! إلا أننى أذكر ... أذكر جيداً أنها كانت ترسل الأغانى من فمها ومن عينيها ، وأننى كنت أسمع الأغانى بأذنى وبقلبى

ولله ما أحلاها وقد بدت فى ثوبها الأسود الهفاف ، فلا يظهر منها إلا وجه كأنه حلم بالوصل فى صنام عاشق محروم ، ويدان كأنهما زهرتان غضتان أسفرتا من جنة محجوبة

وقد أبى صدرها إلا أن يتيه ويشمخ ، وعز عليه أن يحد الرداء من كبريائه فنهض يتحرر ، وبدا كأن بينه وبين الرداء معركة . . .

وظهر جيدها فوق صدرها كشعاع الصبح يشرق من أعلى جبل . . .

ونظرتُ اليها فرأيتها كلها فناً منفرداً فى كل جزء منه فن منفرد ؛ ثم نظرت إليها فرأيتها نوراً تتشعب منه أنوار ، ثم هممتُ أنظر إليها فربع البصر ورُدّت النظرة إلى الفؤاد سهماً

ثم تنفشت كالبلبل المتندى ، ثم نظرتْ إلى الحشد ثلاث نظرات وقمت إحداها علىّ فلتُ أتحاشاها ؛ ولكنها سبقت إلى القلب فاذا القلب عاصفة فى وسط عاصفة ؛ ثم راحت تغنى فأرسلت من بين شفتيها صوتاً فيه شذىً جعلنى أعتقد أن للورد تغريداً وأن هذا هو تغريد الورد ، وأعتقد أن سرباً من البلابل لو اجتمع على أن يأتى بمثل سحرها لما أتى إلا بما يثبت أنها ساحرة معجزة

* * *

وأحسستُ أنها كلما زادت فى غنائها آهة أو لفظة ربطت بين روحى وبينها آصرة ، وأنها كلما أصابتنى بنظرة مدت بين قلبى وبينها جسراً ... ثم أحسست أنها قربت منى حتى صارت جزءاً منى فيه روحى وقلبى وعقلى ؛ ولكنى بعد ذلك لم أحسب إلا أننى خبلت ، ولم أدرك أن هذا هو حبها يدخل من عينى ومن أذنى ...

وانتهيتُ من ساعتها تملأ لأتم ليلتها أرقاً وبى من الجنون مس فى القلب يكاد يبلغ إلى مس فى العقل ... هو الحب ... هو الحب الوليد الجبار وُلد ثم أيفع وشب شبابه فى ساعة ...

هو الحب خلق فى عينيها ليعيش فى قلبى ...

هو الحب جاء يعلن أنه الحب بعذابه وسهره ، وأنه سيكون عقدة بعد عقدة ، ثم لا يكون إلا عقدة بعد عقدة ...

هو سهمها جاء قاسياً ليقتل ثم اشتدت قسوته فلم يقتل ؛ وإنما جرح وأدمى ليظل الجرح جرحاً ويظل الألم ألماً ... ياليته قتل ...

* * *

ومرّ عام فى ليلة ، وآه منها ليلة قاسية وسعت كل دقيقة من دقائقها هاجساً من هواجسى فبتُّ أصبو بصبوة قلبى ، ثم أحار بنزاع عقلى ، ثم أغنى بعين أحلامى ، وأقطع مدى الليل بين الصبوة فى جهلها وغرورها ، والحيرة فى شدتها وعسرها ، والأحلام فى جلوتها وروائها ؛ وما أستطيع أن أخرج من هذا كله إلا باليأس منها حبيبة محبة ولو بعد حين ...

ما كان لى أن أحبها وهى ذات جاه ، ولها سلطان وحاشية ، ويسمى إلى مجلسها من علية القوم فتية يبتغون الأنس والسمر ، وهى تدلّ عليهم دلال حسنها ودلال عفتها ، ثم تتدلى اليهم زهرة محصنة يُستَنشى أرجُها ولا تُقطف ولا تمس

وما كان سهلاً على أن أيأس من حبها فى أول حبها ما دامت فى باطنى عين لا تنظر إلا إلى أعلى فلا تبصر إلا ما هو أعلى ، ولا مستحيل عندها ولا صعب . ما كان سهلاً علىّ أن أيأس

من حبها وعين خيالي كالنظار تقرّب لعينيّ رأسي بعيدها وتهوّن مسافتها

* * *

وطلع الفجر يتثاقل كأنه لا يريد أن يطلع ... طلع وأنا بين شيطانين شيطانها الفاتن وشيطاني المفتون ، كلاهما يدعوني اليها بينا أخوفها على نفسي ولا أبتغي اليها الوسيلة ؛ فمثل هذه التي أُلفتْ تهافت العشاق ، وتغنّتْ بآلام المدنفين ، لا يقع في قلبها الحب إلا بمعجزة ...

ومضى الليل إلا قليلا وأنا في أمري كما أنا ، آخذ بقلبي وأرد بعقلي ! ولبثتُ يتقاذفني تحذير اليأس وإغراء الأمل حتى يئست ونمت

ورأيت في الرؤيا أني أزورها وأنها ترحب بي ؛ وما أحسب إلا أن لقاءنا كان في فردوس ، فقد رأيتها ترفل في الخز وحول قامتها قوس من نور يتهادى على أفق من شفق ، وتحت قدميها ورد منثور كأنه طبقة من الأرض ، وهي تتخفف في خطوها كأنها تسير على الماء

وسرتُ اليها أترفق بالورد ، ورأتني أحييها بتحية قلبي فتبسّمتْ فتبسم في ثغرها الأمل ، ثم تأودت فكأنها بانة عطفتها نسمة ، ثم قالت : تعال ...

ثم ... ثم قالت : أهلاً ... تعال ...

ووثب قلبي اليها ووثبت أدركه بين يديها فصحوت ...

* * *

وما تم الليل بانفلاق صبحه حتى تم في قلبي الحب بانتصار أمله على يأسه ، فشعرت بها تغنى في قلبي ، وتتجلى في عقلي ، وتميس في خيالي ؛ ثم شعرت بها توحي إليّ وحي فتنتها لتؤدي به رسالة الجمال إلى الفن ، وتثبت فيه ارتباط الفن بالجمال

وعشتُ أستوحيها حيناً من الدهر طال ما طال ولم يكن فيه إلا اكتفائي من حبها بالوحي : أتنسّم حنان صوتها ، وأتفيأ ظلال مفاتنها ، وأعيش في جوها وأناجيها وأستلهمها ... كل هذا وأنا بعيد أتباعد لأن قلبي جعل لها سلطاناً عليه وتهيّبها وبذلك سد عليّ منافذي إليها

ولكن الحب أقوى وأشد ... فما زال بي حتى طغى عليّ فرحتُ أطلب زيارتها ؛ وهي كانت تعرف وحيها في كلامي ولا تعرفني ، فعرّفتُ نفسي إليها بكتاب ، ثم ذهبت أزورها في موعد حددته ...

وكان موعدها في ضحوة النهار من يوم مخلد ؛ قمت ليله أتطير بالشوق بين الفرح والرهبة ، ولا يتحول بصري عن الساعة في يدي وهي تبطئ كأنها نائمة ؛ وكلما غبرتْ من الليل ، فترة ودعتها من الفؤاد زفرة ، حتى أحسست في نهاية الليل أن دمي قد احترق بنيران فكري ، وأنني لم يبق مني إلا هيكل كل ما فيه أنه هيكل

وجاء الموعد الذي كنت أحسبني لن أبلغه ... جاء الموقف الذي كان وراء العقل ... جاءت الساعة ، ولقيتها ... ولقيتها وأنا حي ! !

ما ذا كنت في تلك اللحظة ؟ ... إني كنت ركاماً وكنت زلزالاً وكنت ريحاً عاصفاً ...

وجلست هكذا في قاعة الاستقبال بدارها ، ورأيت الأثاث فيها كأنه يهتز لينقلب على رأسي

أكان هذا حباً ؟ ... أكان هذا شوقاً ؟ ... لا والله إنه كان هذياناً ، ثم ظهرت فيه حكمة الحب عند ما لاحت الفتاة بالباب تتقدم إليّ ؛ وحكمة الحب لا تظهر إلا حين يريد هو أن تظهر ...

* * *

جاءت تتيه في مشيتها كأنها سكرى ، وكانت خطواتها همسات قلبٍ متيم الى صاحبه ، وكانت قد بارحتْ فراشها من لحظة ، فدخلتْ عليّ صاحيةً بكل جسمها إلا عينيها ، فقد كانتا ذابلتين كأنهما ما تزالان في نعاسهما

أما وجهها فكان بمسحة النوم عليه كأنه الفجر مائلاً بسناه يقبل باقة من الورد . . .

أما شعرها فكان ثائراً ثائراً كأنه ليل عاشق مؤرّق ، وكأنها استيقظت وما يزال رأسها نائماً في ليله . . .

أما قوامها فكان سكباً من البان في سكب من الحرير . . .

أما هي — أما هي فكانت سحراً يمشي ويتبختر ، وكانت حسناً متكبراً يتواضع . . .

وجاءت تلوح لعيني متصوفة سكرى وقالت : أهلا بمن سبقه الينا شيطانه ! !

ثم صافحتني بيد أنضر من الزهر ، واتخذتْ مجلسها ، ثم نظرتْ إليّ تتأملني فقلت : وكيف عرفت شيطاني ؟ . . .

قالت : أما شعر لى وتغنى بى وكتب عنى ؟ . . .

قلت : يا له حظاً سعيداً . . . ما كنت أحسب شيطانى موفقاً هذا التوفيق ! ! أوَ تقرأين ما يكتب ؟ !

قالت : بلى . . . وما أحبَّ شياطين الشعراء الى نفوسنا نحن المغنيات . إن للمغنية فى كل شاعر تستميله مرآة ترى فيها نفسها ؛ والشاعر والمغنية كلاهما تمام الآخر فيما خلقا له

فتنهدتُ وقلت . إنك الآن توقدين رأسى

قالت : وكيف ذلك ؟

ثم انبسطت على شفتيها ابتسامة صغيرة بان فيها أنها داهية تمكر ؛ إلا أن مكرها فى ابتسامتها كان مكراً أحرملتهباً فى فتنة حمراء ملهبة ؛ فنظرت اليها أستزيده ثم قلت : كلامك هذا فيه نار أشعر بأجيجها فى رأسى

فقالت وهى تمكر مكرا أشد وأحلى : إذن لا يعجبك كلامى

قلت : كلا كلا . . . وهل يُخرج مثل هذا الفم إلا ما يُحب ؟ إن النار التى فى كلامك نار لذيذة كنار الحب فى قلب المحب . لقد قلتِ إن الشاعر والمغنية كلاهما تمام الآخر ، فهل بعد هذا من سحر على لسان ؟ وهل بعد هذا من نار محبوبة فى كلام ؟ . إنك توقدين رأسى بهذه النار من هذا السحر فى هذا المعنى . . . إنك لو اطلعت الآن على أحشائى لعلمت أن الحسن يجنى ولا يشفق فى جنايته

فخفرتْ وكسرتْ فى عينيها لمحة وتهدل شعرها على وجهها ليستر روعة الخفر ، ثم فتحتْ بيديها بين ذوائبها منفذاً لقولها وقالت : هذا كلام شيطانك

قلت : بل هذا كلام قلبى . . .

فرفعت بقية شعرها عن وجهها بيديها ورشقتنى بنظرة داوية سمعت لها رعداً فى صدرى وقالت : أنت إذن . .

ووقف لسانها ببقية الكلمة ، وقالت لى عيناها بنظرة أخرى حنون : أعمها . .

فقلت : أنا إذن . . أحب . .

فأطرقت فخبأت وجهها بين شعرها ثم هزت رأسها تنفض الشعر فرأيت وجهاً جديداً مشرقاً فى معنى الحب

يا عجباً ! ! يا عجبا ! إن كلمة الحب تسمعها غادة جميلة من محب هائم تجعل فى محياها المشرق قسمات جديدة

وتضع الحياء على جبينها قطرات كأنها قطرات الندى على أوراق وردة بيضاء ، فسحتُها بمنديلها وشخصتْ إلىّ فقالت : وجهك الآن مؤمن . . .

قالت : وهل كان من قبل كافرا ؟ وكيف يكون إيمان الوجوه وكفرها ؟

قلت : الوجوه تؤمن وتكفر إيمان القلوب وكفرها ! وقد رأيت وجهك الآن مؤمناً إيمان قلبك . . لكأنه كان يقول لى : إنى شاعر بك وشاعر بما بك ، لأنى أفهم حبك فهو وحى جمالى اليك ، وأعذر قلبك لأنه صيد عينى منك . . .

أما سمعت وجهك يقول هذا ؟

فضحكت وقالت : وجهى لم يقل شيئاً ، وأنا لم أسمع منه شيئاً . . كيف يتكلم الوجه إلا بالفم ؟ . . ولكن فى لم يقل هذا فمن أين جئت به ؟.

وضحكت ضحكة أخرى وهى تنتظر جوابى فقلت : لا يتكلم من الوجوه إلا الوجه الجذاب ، فتكون فى كل لمحة من لمحات عينيه عبارة ، وفى كل وقدة من وقدات وجنتيه همسة ، وفى كل ومضة من ومضات جبينه إشارة

أما رأيتنى أصغى إلى كلام وجهك بشغف ؟.

فضحكت مرة ثالثة ثم سكنت وجهها كأنها تتذكر ، ثم قالت : لا . . . لم أر . . ولم أعقل ما تقول . .

قلت : آه ! ! ها هو ذا وجهك عاد يستهتر بإيمانه . . . ها هو ذا يُدل ويتجنى

وسكتت هى تداعب يداً بيد وطرفها يختلس ما يختلس ، وسكت أنا ألتهمها بعينى فى سكونها الساحر المترنم . . ثم فاجأتنى بطرفها ينظر إلى كل أجزائى بكل ألحاظه وقالت : إنك لتنظر إلى بعين الشاعر المليئة بالحب فترى فى كل شىء منى شيئين متناقضين .

قلت : وأنظر إليك بهذه العين من ناحية القلب فأراك نشوة للقلب تأخذه بقوتها ؛ وأنظر إليك من ناحية العقل فأرى فيك غذاء للعقل ما أحوج العقل إليه ! . ثم أنظر إليك بالعين المجردة من الشعر والحب فأراك فى أقل درجاتك جميلة عزيزة الجمال

فرأيتها كأنها تنظر إلى من خلال منظار لتتبين فى كلامى حقيقة . . ثم كأنها تقتنع . . ثم رأيتها تفكر . فحدقت فيها ملياً ثم قلت : أنت شاعرة . .

قالت وهي تمسك وراء شفتيها ابتسامة : وعلى هذا تكون أنت مغنياً ..

فانتفضت في مكاني وقلت : إذن أنت تعتقدين أنني جزء منك يكملك في أي أحوالك — إذن قد تحقق الحلم يا آنستي

فتأجج خداها وأطرقت ، وعجز قلبي عن مقاومة ما فيه منها ، وحسبتُ أنه قضى

* * *

ثم إنا تفرقنا عاماً لا نملك أن نلتقي ، وكان هذا العام مثار الوحي ومجال القلم

ثم تلاقينا في قصر جميل شيد على جناح النيل بين الخضرة والماء

وجلست في بهو القصر أضم جوانحي على الأشواق والهموم ، وينبعث دخان التبغ من فمي مختلطاً بدخان كبدي المحترقة

ومضت أفكاري تصور لي ما سيكون في لقاء ساعة بعد فراق سنة ... وإني لمضطرب أجرّ نفسي جراً بين أول دقيقة الانتظار وآخرها ، إذ سمعت على الدرج المرمري وقع حذاء الحسناء تتوثب في نزولها كالظبية تتنقل في وادٍ بها بين الربى والسهول

وتلفتُّ فإذا هي مقبلة تتهادى في وشاح فضفاض من حسنها ، وأمامها في الهواء نهدان خلقا ليسبقاها أينما مشت

وكان وجهها يتلألأ بين ضوء الجبين ووهج الوجنتين حتى حسبته قمراً كحلت عيناه في ليلة التمام

ووقفت ينفصل بيني وبينها بعد خطوتين ، وفي عينيها نظرة عتاب كأنها طعنة خنجر ، ووقفتُ أنا وفي عينيّ نظرة اعتذار كأنها دمعة قلب ... والتقت النظرة بالنظرة فإذا هما في الهواء قطعة من (المغنيزيوم) تشتعل ، وإذا هما في كبدي شعلة من الوجد تضطرم

ثم تقدمت الحسناء وقالت : أهلاً بذاكرنا أهلاً بناسينا

فقلت : وكيف أنساكِ وأنا ناس بك كل ما عداك ؟ ..

قالت : ما رأيتُ من تذكرك إلا ما قرأتُ من رسائلك ؛ فهل كل ما عندك أن ترسل الرسائل ؟ ! كأني بك لا تحب إلا أن تتخيل لتعيش في خيالك

قلت : وكثيراً ما أهرب من لقاء الحقيقة لأظل مفتوناً بالخيال ناعماً بغبته ؛ ولولا أنك فوق تصوره لما بحثت عنك إلا في خيالي بين أحلامي وأوهامي

قالت : أنت إنسان عجيب . . .

وبدا محياها كأنه مبلول بالخمر ، وتعربد قلبي كأنه سكير ، وسمعتُنا ؛ ثم تنفستُ وقلت : ويحي ... ويحي ... إنك حقاً فوق تصوري وبعد خيالي ، فإني لأحس الآن أن كل قطرة من دمي تناجيك وتسبّح لك ، وأحسب أن الله تعالى قد خلقك خلقة ممتازة

فضحكتْ ضروباً ، وانعطفتْ في ناحية الكبرياء من جمالها وقالت : هكذا أنتم أيها الشعراء كثيراً ما تكفرون ...

قلت : آه لو كنتِ رجلاً مثلي وعشقت فتاة مثلك ! ! إذن لصدّقتِ أنك من خلقة ممتازة

قالت : أما يزال شيطانك يكفر ؟ . . إنكم أيها الشعراء لقادرون ؛ . إنكم تستطيعون أن تصنعوا من القبح جمالاً ، ومن الجمال فنّ جمال ، ومن فن الجمال عالماً من الفنون . فكم تصوّرون من مشاهد الكون وتبالغون في التصوير فيظن الناس أن الطبيعة هي التي أبدعتْ ما صنعتْ فتقلتم عنها حقائق

ثم سكتت ثم قالت : هأنت تقول عني ما ليس فيّ فأكاد أصدق أن فيّ ما تقول ...

فقلت : مهِ مه ... يا فاتنة ... إنك تتكبرين في تواضع ، وتتواضعين في تكبر ؛ والله ما رأيت مثلك غادة جميلة تنكر أنها جميلة ... ألا إن هذا وحده يقوم دليلاً على أنك مطمئنة إلى نبوغ جمالك وعبقريته

فرمقتني بنظرة تائهة في فرح عينيها وقالت : إنك تغزوني ...

قلت : أرأيت القاتل يقتل ويتهم المقتول ؟ ... هذه أنت تتهمينني بأنني أغزوك وأنت فاتحة قلبي

قالت : لسانك وقلمك قد تآمرا عليّ ...

وحزن جمالها فصوّر في حزنه أجل معاني الحزن ، وترقرقت عيناي إلا أنني أمسكتُ العبرة بين أجفاني فتغشّى بها بصري لحظة ... ولما نظرت بعد ذلك رأيتها معلقة تشد منديلها بين يديها وكأنها تغالب في باطنها قوة تمردت عليها ... وكأن وجهها يفكر ، وكأن لحظها يحلم ...

قلت : إنك تخبئين شيئاً وتريد الشوء أن يظهر

فرنتْ إليّ بطرفها مبلّلاً بالحنين ، فانطبقتْ أجفاني